العودة

قصة

بقلم الفنت عمر باشا الأدلبي

لقد سدت في وجهي جميع ابواب الرزق التي قصدتها ، ولذلك لم اجد مناصا من الرضى بان اعمل سائق سيارة للاجرة . غير اني اشترطت على رب العمل ـ صاحب السيارة ـ بأن يكون عملي في الليل رغم ما في ذلك من مشقة وجهد ، فالليل اخفى للويل كما يقولون . فكنت اقبع منكمشا على نفسي خلف مقود السيارة اواري وجهي من المارة خشية ان يراني احد من معارفي او أصدقائي . كنت اتخيل الدهشة التي ستعتريه ، والاسف المرير الذي سيرتسم على وجهه وهو يحدق الي النظر وكأنه يقول في نفسه وقد خامره الشك في امري : لك الله يا نكبة فلسطين !! أيصبح حسن بك احد وجهاء يافا الذي كانت هوايته المفضلة اقتناء السيارات الفخمة ، سائق سيارة للاجرة ؟ واتمثله كيف يدور على عقبيه ثم يختفي من امامي ، اما رحمة بي واشفاقا علي ، أو تحاشيا لما قد يحرجه من حالي .

على انني ما لبثت وقد مر الزمن حتى تبلد احساسي ، وتجمد شعوري ولم تعد تمر ببالي امثال تلك الخواطر . لقد ألفت عملي هذا واستكنت اليه ورضيت بالواقع المرير ، وأصبحت اعيش ليومي فقط وأعمل كآلة صماء . لقد تساوت في نظري قيم الحياة ومفاهيمها ، فلا فرق عندي بين خيرها وشرها ، رفيعها ووضيعها . وأصبحت تراني احدق النظر الى المارة وانا خلف مقود السيارة كأني أتحداهم واحدا واحدا . أو كأني اقول لهم انا فلان ابن فلان وقد اصبحت كما ترونني ، فاي دعوى لكم عندي ؟؟

وكنت قد اتخذت لسيارتي موقفا اتصيد منه الركاب امام ملهى ليلي في ضاحية من ضواحي دمشق . وذات ليلة عاصفة وقد اربت الساعة على الثانية بعد منتصف الليل وانا ما ازال قابعا في مكاني خلف المقود،انتظر خروج رواد الملهى ، وأقاسي سآمة الانتظار ، ادخن اللفافة تلو اللفافة واعصابي في خدر ثقيل ، لا شيء يثير اهتمامي ليذكرني بيوم كنت فيه من رواد الملاهي ومن زبائنها المرموقين . وكادت تنقطع كل صلة لي بالماضي الذي اخذ يبدو لي على قربه سحيقا سحيقا كأنه مغطى بضباب كثيف .

ويخرج من الملهى رجل قصير بدين والى جانبه امرأة فارعة الطول . وأراه بعد قليل يشير الي بطرف اصبعه واسارع لتلبية طلبه ، فتنساب سيارتي الى حيث قد وقف والى جانبه المرأة الفارعة . وما يكاد ضوء السيارة يقع على وجهها حتى اعرفها لاول وهلة رغم ما طرأ عليها من تغير. كانت هي ميمي بعينها ، تلك الحسناء اللعوب التي كانت تعمل في ملاهي يافا قبل النكبة . وكان قد سبق لي ان عاشرتها آنذاك مدة طويلة اغدقت عليها خلالها اموالا طائلة . حتى اذكر انني اهديتها فيما اهديتها سيارة بويك خضراء ، وما كدت اعرفها حتى اعتراني ارتباك شديد فخطر لي ان اتراجع ولكن يد الرجل كانت قد ادركت باب السيارة . ومرت ميمي من امامي واستوت في السيارة الى يمين الرجل دون ان تلتفت فتراني أو تأبه بي واستطعت ان احدق نظري اليها قليلا ، ولم يعد في نفسي ادنى شك من انها هي نفسها ، ولكن المسكينة كانت ترتدي ثيابا رخيصة على غير عادتها ، وقد اختفت اناقتها وتلاشت كبرياؤها التي قلما كانت ترى على مثيلاتها من النساء . وبدت وكأنها على ابواب الكهولة . وخيل الي انني استطعت ان اسيطر على اعصابي المضطربة ، وما هي الا دقائق وستمر بسلام . وأشعر بغصة مريرة واقول في نفسي : يا لتصاريف القدر ! اين انا اليوم من يوم كنت فيه اسوق سيارتي الخاصة والى جانبي ميمي في عز شبابها وجمالها يحسدني على صحبتها كثير من الناس ؟ وخطر لي ان التفت اليها وأقول لها :

ـ حتى انت لقد أزرى بك الدهر بعدنا !!

وما ادري لماذا اعترتني رعدة هزتني هزا عندما سمعت صوتها ذا البرنة الشجية التي كان سحرها يبلغ اعماق نفسي وهي تحدث الرجل قائلة له :

ـ أين هي سيارتك ؟ أعرف ان لك سيارة خاصة !

ويجيبها الرجل بصوت ثمل :

ـ لقد بعتها من امد قريب . لانني ارغب في شراء سيارة من طراز جديد .

فتقول ميمي : يا سلام ، عظيم . عليك بالبويك ، اذن . فليس بين السيارات سيارة تضاهيها فخامة ومتانة . كان عندي سيارة بويك خضراء اهداها الي صديق عزيز ..

ويقاطعها الرجل بلهجة ساخرة وكأنه ظن ان المرأة تحرضه ليشتري لها سيارة :

ـ يا سلام كان عندك بويك ! واين هو صديقك العزيز هذا الذي يهدي السيارات البويك ؟؟

وترد عليه المرأة بلهجة مفعمة بالاسى : هو من يافا وقد مات المسكين شهيدا في حرب فلسطين .

ويقهقه الرجل ويقول بلهجته الساخرة :

ـ خلصنا منه والحمد لله !

وأكاد أنا أن اشهق دهشة من جوابها غير المنتظر . ثم ما لبثت ان وجدتني اقود السيارة ساهما فاغرا فمي محملقا بلا شيء . وانا اقول في نفسي :

ـ أميت أنا اذن ؟! أماتتني اللعينة بسهولة ويسر . بكلمتين فقط . كلمتين باردتين . كم انا هين عليها . اماتتني وهي تعلم يقينا انني حي ارزق ، ولكنني ميت في نظرها ما دمت معدما لا املك شيئا . ماذا يحدث لها يا ترى لو انني التفت اليها واضأت النور واريتها وجهي ، ثم قلت لها رحمة الله على الشهيد الكريم ؟ وهممت ان افعل ذلك ولكني ما لبثت ان تراجعت وانا اقول في نفسي :

لا لا . لا يحق لي ابدا ان احرجها واربكها وقد اختارت لي هذه المينة الشريفة الكريمة ! شكرا لها .. لقد اماتتني والله حيث كان يجب علي

ان اموت . اليس الموت خيرا من هذا الهون ؟

ويفوتني بعض حديثهما ثم اسمعه يقول لها بسخرية لاذعة :

ـ رحمة الله على صاحبك اليافاوي هذا كم كان كريما متلافا ، وبطلا مغوارا فى كل الميادين ! لقد اهداك كما تقولين سيارة بويك ، وهذا ليس بقليل ، ولكنه اهدى فلسطين روحه فهو كريم فى كل المواقف !

وترد عليه وقد ارجف صوتها ما فى نفسها من غضب ونزق :

ـ اتهزأ حتى بالشهداء الابرار ؟ ولكن اطو لنا هذا الحديث فأخشى ان يجرنا الى جدل غير محمود . انت دائما لا تصدق ما اقوله .

ويجيبها ببرود :

ـ والله اني لا اهزأ . ومتى كنت لا اصدق ما تقولينه ؟ ولكني استغرب ما سمعته منك . فأنا اعتقد تماما بأن الرجال الذين يجودون بالسيارات الفخمة على الحسناوات مثيلاتك فى الظروف التي كانت تجتازها فلسطين قلما يجودون بأرواحهم من اجلها . فصاحبك هذا على ما يبدو لي نسيج وحده ، ولذا فانا استمطر عليه شآبيب الرحمة .

قالت :

ـ يا الهي ! انت دائما غيور لا تستطيع ان تخفي شيئا مما يتأجج فى نفسك . دعنا من حديثه .

فقهقه ضاحكا ثم قال :

ـ أنا غيور ؟؟ ما كنت والله لاغار من اصحابك الاحياء ، فما قولك بالاموات منهم ؟ ان الرجل الذي يثير غيرتي لم يخلق بعد ، ولن يخلق.

قالت بدلها المعهود :

ـ كم يعجبني غرورك ويستهويني .

وكان جوابه لها قبلة صك صوتها مسمعي ، واحدث فى رأسي دويا ، وفى يدي اضطرابا . واخذت اشعر برغبة ملحة فى ان اسدد ضربة شافية لهذا الثقيل تهشم اسنانه . ولكن لم هذا التجني ؟ الانه نطق بالحقيقة ؟ ألم أكن فى الواقع واحدا من هؤلاء المتهاونين الذين قصروا فى حق فلسطين ، ولم يؤدوا ما عليهم من دين لها ؟ ألم أكن اعيش على هامش الحياة لا ابالي بكل ما يجري حولي ، متفرغا لنفسي وللذاتي التي لا حد لها ؟!

وأتنبه فجأة فاذا انا اقود السيارة على غير هدى ، وكأنها قد جمحت بي ، فاذا انا اسير فى طريق مظلمة ما ادري والله كيف انتهيت اليها وقد اضعت اسم الشارع الذي سماه لي الرجل وهو يركب السيارة . وانا فى حيرتي هذه يتنبه الرجل ايضا فيصرخ بي قائلا :

ـ العمى يعميك ! اما حمار بليد ! الى اين انت ذاهب بنا ؟

وأشعر بدمي يفور ويصعد مرة واحدة الى رأسي . واجزم ان لم احسن الهرب بأسرع ما يمكن فأنا مقدم على امر فظيع . ودون ان افوه بكلمة اوقفت السيارة ونزلت منها بسرعة وصفقت بابها بكل ما لدي من قوة واسرعت الخطى وتواريت فى منعطف مظلم ، وتركتهما حيث هما يصخبان . ليحدث ما يحدث ، ولتهو السماء على الارض . لم اعد احتمل اكثر مما احتملت واخذت اهيم على وجهي فى الظلام تصطرع فى نفسي شتى الاحاسيس كأنني كنت فى سبات عميق ثم صحوت فجأة . وثار ضميري وكأنه مارد عملاق ، اخذ يؤنبني كأشد ما يؤنب الضمير . كيف خرجت من بلادي ؟ كيف رضيت هذا الذل والهوان ؟ ولم لم ارو ارضها الطيبة بدمائي ؟ ولم لا اعود اليها ؟ ولم ادر كم بقيت على حالي هذه ، ولكني اذكر اني مع اشراقة الفجر وجدتني وقد رسمت لنفسي هدفا لن احيد عنه ابدا .

ـ العودة او الموت ! واخذت اشعر بالراحة والاطمئنان يسريان فى نفسي ، وان آفاقا نيرة قد امتدت امامي الى ما لا نهاية ، وان عزيمة عجيبة تنفجر فى كياني ، أستطيع الان ان اتخطى الصعاب واقتحم المهالك . فما اروع ان يكون للانسان هدف نبيل يسعى اليه . فى أي مهمه كنت اعيش ؟! وكيف أضعت ما اضعت من عمري فى لا شيء ؟!!

وقادتني قدماي دون وعي مني الى البيت الحقير الذي كنت اسكنه واختي . كان ضوء خافت ينبعث من غرفتها فأدركت انها ما زالت ساهرة تنتظر عودتي . ولما رأتني قالت لي ذاهلة :

ـ انت على غير عادتك . ماذا حدث لك ؟ قل لي لا تخف عني شيئا ، هل أصاب سيارتك حادث ؟ هل دهست احدا ؟

ولم استطع الكلام ، فألقيت رأسي على كتفها واجهشت بالبكاء . واخذت هي تبكي معي وتهدهدني كما يهدهد طفل صغير . ولما سكن جأشي واستطعت الكلام قلت لها :

ـ انا الان يا اختاه غير ما عرفتني بالامس . سأعود الى بلادي ، وسأكون واحدا من هؤلاء الفدائيين الذين ينغصون عيش الغاصبين ، ويقضون عليهم مضاجعهم وامامهم هدف لن يحيدوا عنه ابدا ـ العودة او الموت ـ ولتدبري انت امرك . قالت جازمة : لا لا . سأكون انا ايضا الى جانبك . الا مكان بينكم لمن يريدون العودة ؟؟

قلت : ـ كيف لا ؟ اذا شئت هناك مكان لكل فلسطيني بل لكل عربي رجلا كان أم امرأة ، شيخا ام طفلا .

ورأيت بريقا من امل يشع من عيني أختي الخابيتين وضحكة مشرقة تنير وجهها . اختي التي لم تضحك ابدا منذ اصبحنا لاجئين .

دمشق — **الفة عمر باشا الادلبي**

عند زيارتكم للقاهرة

تخيروا

فندق كلاريدج

بوسط القاهرة

شارع ٢٦ يوليو

الدخول : ٤١ شارع سليمان باشا

ادارة جديدة ـ خدمة ممتازة ـ وسط عائلي

تلفون ٥٤٧٧٦